ضاد العربية في القديم:

الضّاد - كما جاءت صفته في «الكتاب» - حرف من أحرف الإطْباق[٨]، وسُمّيَت كذلك لانْطِباق اللّسان على الحَنَك الأعلى عند إخراج الصّوت.

وتحدثَ سيبويه عن الضّاد ومخرجه فقال[٩]: «ومن بين أول حافّة اللّسان وما يليها من الأَضْراس مَخْرج الضّاد».

ثُمّ وَصَفَ حركة اللّسان والهواء لإخراج هذا الحرف وغيره من أحرف الإطْباق فقال[١٠]: «وهذه الحروف الأربعة إذا وَضَعْتَ لِسَانك في مواضعهنّ انْطَبَقَ لِسَانُكَ من مواضعهن إلى ما حاذى الحَنَك الأعلى من اللّسان ترفعه إلى الحَنَك، فإذا وَضَعْتَ لِسانَكَ فالصّوتُ مَحْصورٌ فيما بينَ اللّسان والحَنَك إلى موضع الحرف».

ثم ذكر سيبويه أنّ للضّاد وما كان من بابها موضعين من اللّسان، فقال[١١]: «وقد بُيّنَ ذلك بِحَضرِ الصّوت».

فقول سيبويه: «إلى موضع الحرف» يعني به مَخْرَجه، وإنْ لم يُصَرّحْ بذلك، وقد جاء ذلك صريحاً عند شيخه الخليل[١٢]؛ حيث ذهب إلى أنّ الضّاد شجريّة من مخرج الجيم والشين، ومعنى شجريّة أنها خارجة من شجر الحَنَك، وهو ما يُقابل طَرَفَ اللّسان. قال الخليلُ: «الشّجْرة مفرج الفم. أي منفتحة»، وذهب غيره إلى أنه مجتمع اللّحيين عند العنفقة.

وإذا تحوّلتَ عن سيبويه إلى مَن جاء بعده فإنك لا تجد عندهم إلّا تمام المُطابقة لسيبويه على ما أَوْرَدَهُ على الحرف مخرجاً وصفة، ورُبّما كانَ وَصفُ سيبويه بالإضافة إلى بعض ما أَوْرَدوه أَدقَّ وأَحْكَم[١٣].

وأما إخراج الضّاد والبيان الدقيق له فما فاتهم تحديده: أهو من الجانب الأيسر، أو الأيمن، أو الجانبين معاً؟. وكان لِصَاحب الكِتاب في هذا السبق. بيدَ أنّ ذلك جاء في معرض حديثه عن الضّاد الضعيفة، فقوله[١٤]: «فتستطيل حين تُخَالِطُ حُروفَ اللّسان، فَسَهل تحويلها إلى الأَيسر؛ لأنّها تصيرُ في حافّة اللّسان الأَيسر إلى مِثْلِ ما كانت في الأَيمن، ثُمَّ تنسلُّ من الأَيسر حتّى تتّصِلُ بِحُروفِ اللّسان، كما كانت كذلك في الأيمن. وعلى هذا كان الخِلافُ بين المتقدّمين، وتلخيص ذلك يكون في ثلاثة آراء عَرَضَها السّيوطي، وهي[١٥]:

الأول : أن كثيراً من المتقدّمين ذهبوا إلى أنّ الضّاد من الجانب الأَيسَر.

الثاني : ذَهَبَ قليلٌ منهم إلى أَنَّ مَخرجهُ من الجانب الأَيمَن.

الثالث: أن عُمَر بن الخطّاب كان يُخْرِجُ الضّاد من الجانبين معاً[١٦].

قلتُ: اضطرب حديثهم في بيان هذا، فقد ذكر الصيمري من نحاة القرن الرابع أنّ[١٧]: «من حافّة اللّسان اليُمْنَى ممّا يلي الأَضْراس مَخْرَج الضّاد».

ثُمّ قال[١٨]: «وبعضُ النّاس يُخْرِجُهَا مِنَ الحافّة اليُسْرى، وبعضهم يَسْهُلُ عليه إِخراجها من الجِهَتين معاً».

ونقل السُّيوطي عن الصيمري تتمّة الحديث[١٩]: «وكلام سيبويه أيضاً يدلُّ على أَنَّ الضّاد تكون من الجانبين».

وإذا نظرت في تفسيرِ كلام سيبويه عند من جاء بعده تَجِدُ الاختلاف فيه؛ فالرضي[٢٠] يذكُر أَنّ أَكثرَ ما تَخْرُجُ من الجانب الأَيمَن على ما يُؤْذِنُ به كلامُ سيبويه، وما صَرّح به السّيرافي.

وينقل السُّيوطي[٢١] عن أبي حيان أنّ خُروجَ الضّاد من الجانب الأَيسَر عند الأكثر، والأَيمن عند الأقل.

وهذا مُناقض لِمَا ذَكَره الصيمري من قبل، من جَعْل حافّة اللّسان اليُمْنَى هي المَخْرَج، وجَعْل إخراجه من الحافّة اليُسرى للأقَلّ.

وتَجِدُ غير هذا عند ابن عصفور، فقد ترك الأَمرَ على المشيئة، قال[٢٢]: «إلّا أنّك إنْ شِئْتَ تكلّفتها من الجانب الأيمن، وإنْ شِئْتَ مِنَ الجانب الأيسَر».

وإذا نَظَرتَ في هذه الآراء المُتعارضة في بيان جانبيْ اللّسان، والأَصل في مَخْرَجِ الضاد والأقل والأكثر، ثم كَررت النَّظَرَ في كلام سيبويه لم تَجِد حديثاً صريحاً في المسألة إلّا في ثنايا حديثه عن الضّاد الضّعيفة، ففيها ما يشعرُ أنّ الأصلَ في مَخْرَجِ هذه الضّاد الحافّة اليُمنى. إذ ذَكَرَ أنّه يَسْهُلُ تحويلُها إلى الأَيسَرِ على مِثْلِ ما كانت في الأَيْمَن، فالأَيْمَنُ أَصْلٌ، والتّحويلُ إلى الجانبِ الأَيسَرِ طارئ. وهو ما لاحظهُ الرَّضيّ حين قال[٢٣]: «وأكثرُ ما تَخْرُجُ من الجانب الأَيْمَن على ما يُؤْذِنُ به كلام سيبويه.

والغريبُ من السُّيوطي أنْ يرى أنّ من لا ضبطَ له ولا معرفة ذَهَبَ إلى أنّ الجِهَة اليُمْنَى تختصُّ بالضّاد[٢٤]. مع أنّ هذا الذي ذَهَبَ إليه مَن جَهّله السُّيوطي وغمز منه هو ما يُوحي به نصُّ سيبويه.

وبعد هذا الذي عَرَضْتَهُ لكَ تَجِدُ عند المتقدّمين مفاضلة بين الجهتين، فقد نقلَ السُّيوطي عن أبي علي بن الأحوص قوله[٢٥]: «يتأتّى إخراج اللّام من كلتا حافّتَيْ اللّسان: اليُمْنَى واليُسْرى، إلّا أنّ إخراجها من حافّته اليُمنى أَمْكَن، بِخلاف الضّاد؛ فإنّها من اليُسْرى أَمْكَن».

وإذا رجعت البصر فيما كان من الحديث عن مخرج الضّاد لم تجد فيه قولاً دقيقاً؛ فقد جُمِعَ من غير تمييز بين تعيين المَخْرج وبيان صفة حركة اللّسان في التصويت بهذا الحرف. ورُبّما كان عدَم التمييز بين الحديث عن المَخْرَج المتعيّن

وصفة حركة النَّفَس مع إنتاج الحرف إنّما هو بداية للمُشكلة القائمة عند المتقدّمين في حديثهم عن الضّاد، وكذا عند المحدّثين تبعاً لِمَن سبقهم.

صعوبة النطق بالضّاد:

يردد العُلماء أن الضّاد من أصعب[٢٦] الحروف في النُّطْقِ، وأنه لا يخرج من موضعه غيره من الحروف. قال ابن الجزري[٢٧]: «وليس من الحروف ما يَعْسُر على اللّسان مثله؛ فإن ألْسِنَة النّاس فيه مُختلفة، وقَلّ من يحسنه، فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاماً مُفَخّمة، ومنهم من يشمّه الزاي[٢٨]، وكل ذلك لا يجوز»، ثمّ حَذّر[٢٩] من قَلب الضّاد إلى ظاء، لاسيما فيما يشتبه بلفظ نحو: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾[٣٠]. يشتبه بقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾[٣١]، ثم قال: «وليُعمل الرياضة في إحكام لفظه خصوصاً إذا جاوره ظاء نحو ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[٣٢]، ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾[٣٣]...».

فقد صَوّر ابن الجزري في حديثه هذا أشكالاً مُنْحَرِفات عن سواء النُّطْق بهذا الحرف، ربما شاعت في زمانه، ولا يزال بعضها واقعاً إلى يومنا هذا، وكل أُولئِكَ شاهِدُ صِدْقٍ على عُسْرِ النُّطْقِ بهذا الحرف الذي يَسْتَتْبَعُ بالضرورة اضطراب الوَصْف.

السّمَات الفارِقة للضّاد:

١ - المَخْرَج:

تقدّم الحديث عمّا تضمنّه وصف المتقدّمين للضّاد من خلط بين تعيين مخرج الحرف وصفة الهواء عند إنتاجه.